

﴿مِنْ قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنْزَلَ الْفُرْقَانَ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ
اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ﴾ [آل عمران: 4]

❁ مُنَاسَبَةُ الْآيَةِ لِمَا قَبْلَهَا:

الرَّيْبُ بَيْنَ إِسْرَافِ
الرَّسْلِ وَإِنْزَالِ
الْكِتَابِ، وَبَيْنَ
هُدَايَةِ مَنْ آمَنَ
وَعِقَابِ مَنْ كَفَرَ

"لَمَّا قَرَّرَ تَعَالَى أَمْرَ الْإِلَهِيَّةِ، وَأَمَرَ النَّبُوَّةَ، وَبَيَّنَّ أَنَّهُ أَنْزَلَ التَّوْرَةَ
وَالْإِنْجِيلَ مِنْ قَبْلِ إِنْزَالِ الْقُرْآنِ؛ أَوْضَحَ هُنَا أَنَّهُ أَنْزَلَ لِهَاتَيْنِ الْهُدَى لِلنَّاسِ،
وَفِي هَذَا بَيَانٍ لَوْضُفِيَّتِهِمَا فِي دَعْوَةِ اتِّبَاعِهِمَا إِلَى الْإِيمَانِ بِالْقُرْآنِ،
وَمَا فِيهِ مِنْ آيَاتٍ، ثُمَّ حَذَّرَ، وَتَوَعَّدَ مَنْ كَفَرَ بِآيَاتِ اللَّهِ مِنْ كُتُبِهِ الْمُنَزَّلَةِ
وَعَبَّرَ بِهَا بِالْعَذَابِ الشَّدِيدِ، مِنْ عَذَابِ الدُّنْيَا: كَالْقَتْلِ وَالْأَسْرِ وَالْغَلَبَةِ،
وَعَذَابِ الْآخِرَةِ: كَالنَّارِ"⁽¹⁾، لِأَنَّهُمْ مِنْ "الَّذِينَ كَفَرُوا، وَجَحَدُوا بِآيَاتِ
اللَّهِ النَّاطِقَةِ بِتَوْحِيدِهِ، وَتَنْزِيهِهِ عَمَّا لَا يَلِيْقُ بِعِزَّةِ جَلَالِهِ، فَكَذَّبُوا
بِالْقُرْآنِ، ثُمَّ بِسَائِرِ الْكُتُبِ تَبَعًا لِذَلِكَ، وَأَنْكَرُوهَا"⁽²⁾.

❁ شَرْحُ الْمَفْرَدَاتِ:

(1) ﴿الْفُرْقَانُ﴾: "وهو مأخوذٌ من فَرَّقَ، والفرق: يقال اعتبارًا
بالانفصال، يقال: فرقت بين الشيئين؛ فصلت بينهما، سواءً كان
ذلك بفصلٍ يدركه البصر أم بفصلٍ تدركه البصيرة، والفرقان
أبلغ من الفرق؛ لأنَّه يستعمل في الفرق بين الحقِّ والباطل، ومن ذلك
قوله ﴿يَوْمَ الْفُرْقَانِ﴾ [الأنفال: 41]، أي: اليوم الذي يُفَرِّقُ فِيهِ بَيْنَ الْحَقِّ
وَالْبَاطِلِ، وَالْحُجَّةِ وَالشُّبْهَةِ"⁽³⁾. ومعنى ﴿وَأَنْزَلَ الْفُرْقَانَ﴾، أي: ما
فَرَّقَ بِهِ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ، وَرُوي عَنْ بَعْضِ الْمَفْسِّرِينَ: أَنَّ كُلَّ كِتَابٍ
لِلَّهِ فُرْقَانٌ"⁽⁴⁾، "من الفرق بين الحقِّ والباطل، فحروفها مختلفة،

(1) أبو حنَّان، البحر المحيط: 3/18.

(2) أسعد حومد، أيسر التفاسير، ص: 298.

(3) الرَّاغِب، المفردات: (فرق).

(4) الرَّجَّاح، معاني القرآن وإعراجه: 1/375.

والمعنى قريب بعضه من بعض؛ إذ كلها معناه، ظهور الحق، وبيان الشرع، وفصله من غيره من الأباطيل⁽¹⁾، وللفرقان في التنزيل مواضع، فمنه قوله ﷺ: ﴿نَزَلَ الْفُرْقَانُ﴾، أي القرآن، والفرقان: النصير، ومنه قوله جل ثناؤه: ﴿وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ﴾ [الأنفال: 41]، أي يوم النصير، يعنِي يوم بدر، والفرقان: البرهان، وهذا مستقصى في كتاب لغات القرآن⁽²⁾، وقد قالوا: "وكل ما فُرِّقَ به بين الحق والباطل فهو فُرْقَانٌ، فهذا قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ﴾ [الأنبياء: 48]"⁽³⁾.

(2) ﴿عَزِيزٌ﴾: من العِزَّة، وهي حالة مانعة للإنسان من أن يُغلب، من قولهم: أرض عزاز، أي: صلبة، والعزیز: الغالب الممتنع على من يريده بالقهر والغلبة، الذي يقهر، ولا يُقهر⁽⁴⁾، "﴿عَزِيزٌ﴾، معناه: غالبٌ، وقد ذلَّ له كلُّ شيء"⁽⁵⁾. "﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ﴾ غالب لا يُمنَع من التعذيب"⁽⁶⁾، والمشهور، أنَّ العِزَّ: خلاف الذلِّ، وعزَّ الشيء يعزُّ وعِزَّة وعِزَّة وعِزَّة، إذا قلَّ لا يكاد يوجد، فهو عزيز، وفي المثل: (إذا عزَّ أخوك فهنَّ)، والدليل على هذا المعنى، ما روي أنَّ العِزَّى سمرة، كانت لغطفان يعبدونها، وكانوا بنوا عليها بيتا وأقاموا لها سدنة، فبعث إليها رسول الله ﷺ خالد بن الوليد، فهدم البيت، وأحرق السمرة، وهو يقول: (يا عزَّ كفرانك لا سبحانك. إنني رأيت الله قد أهانك)⁽⁷⁾، والإهانة عكس العِزَّة.

(3) ﴿ذُو أَنْتِقَامٍ﴾: "والنَّقْمَةُ والانتقام: معاقبة المذنب بمبالغة في ذلك"⁽⁸⁾، "الْإِنْتِقَامُ: اقْتِعَالٌ مِنَ النَّقْمَةِ، وَهُوَ السَّطْوَةُ وَالْإِنْتِصَارُ"⁽⁹⁾، و"عبَّر بعضهم عنها بالمعاقبة"⁽¹⁰⁾، قال تعالى: ﴿فَأَنْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ﴾ [الأعراف: 136].

وقوله تعالى: ﴿ذُو أَنْتِقَامٍ﴾: من صفات الله تعالى، ومعناه: المبالغ في العقوبة لمن يشاء،

(1) ابن عطية، للحرر الوجيز: 1/399.

(2) الأزدِّي، جمهرة اللغة: 2/785.

(3) الجوهري، الصحاح: (فرق).

(4) السمين، عمدة الحفاظ: (عز).

(5) ابن عطية، للحرر الوجيز: 1/399.

(6) البيضاوي، أنوار التنزيل: 2/5.

(7) الجوهري، الصحاح: (عز).

(8) ابن عطية، للحرر الوجيز: 1/399.

(9) أبو حيان، البحر للحيط: 3/7.

(10) ابن عادل، اللباب: 5/23.

المسلط بلاءه على العصاة، ومن أسمائه المنتقم: ومعناه: المبالغ في العقوبة لمن يشاء، المسلط بلاءه على العصاة⁽¹⁾.

✽ المعنى الإجمالي:

إنزال القرآن
تجديداً لهداية
الكتب السابقة،
وإبعاد الكافرين
بسوء العذاب

بين الله تعالى في هذه الآية مخاطباً نبيه ﷺ، أنه " أنزل التّوراة على موسى، والإنجيل على عيسى عليه السلام من قبل تنزيل القرآن عليك، وهذه الكتب الإلهية كلها هداية وإرشاد للناس، إلى ما فيه صلاح دينهم وديناهم، وأنزل الفرقان الذي يعرف به الحق من الباطل، والهدى من الضلال، ومعلوم أنه قد أنزلت الرّسالات لعلاج ما يعرض في البيئات التي يرسل فيها الرّسول؛ بصورة محدودة في المكان والزّمان، أمّا رسالة القرآن، فعلاج لما تعاني منه الإنسانية من أدواء، وتقرير ما يصلح لها، على اختلاف الأمصار، وتباعد الأقطار، حيث يحمل عناصر الكمال، التي تؤهّله للاستمرار إلى أن يقوم الناس لرّب العالمين بيقين⁽²⁾؛ وأمّا الذين كفروا بآيات الله التي أنزلها على نبيه، فلهم عذابٌ شديدٌ، والله عزيزٌ منتقم ممّن خالف دينه، وانتقامه ممّن كذب رسله، وخالف أمره، "ليس تشفيًا وشفاء غيظ، كما هو الشأن من البشر، بل انتقام الله عقوبة عادلة، وقصاص رادع"⁽³⁾.

✽ الإيضاح اللّغوي والبلاغي:

تعدّد التّقدير بالإيجاز بالحذف في قوله: ﴿مِنْ قَبْلُ﴾:

الطّرف في قوله تعالى: ﴿مِنْ قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ﴾، مضافٌ وحذفُ المضاف إليه: "لفهم المعنى، تقديره: من قبلك، أو: من قبل الكتاب"⁽⁴⁾، أو: "مِنْ قَبْلِ هَذَا الزَّمانِ، وَهُوَ زَمَانُ نَزُولِ الْقُرْآنِ"⁽⁵⁾.

(1) أحمد مختار عمر، معجم اللغة العربيّة المعاصرة: 3/2276، وما بعدها.

(2) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 2/1102، بتصرّف.

(3) أبو زهرة، للرجع السابق نفسه: 2/1103.

(4) ابن عادل، اللباب: 5/20.

(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/149.

ويضاف في سرٍّ مجيء ﴿مِنْ﴾ الابتدائية في قوله: ﴿مِنْ قَبْلُ﴾⁽¹⁾ أنها أفادت معنى: ابتداء الزمن؛ بخلاف لو قال: (قبل)؛ فلا يلزم منه نقطة البدء، فقد ينصرف إلى ما قبل التوراة والإنجيل، لكن ﴿مِنْ﴾ حدّدت البداية الزمنية، وبذلك تدخل التوراة والإنجيل دخولاً أولياً.

توجيه التعبير بذكر البدهي من الكلام:

سُئِلَ ابنُ عرفة: ما الفائدة في قوله: ﴿مِنْ قَبْلُ﴾، ولو أسقط من الآية: لم يختل المعنى؛ لأنه معلوم أنَّ إنزالها قبل، وأنها هدى للناس من قبل؟ فأجاب:

"بأنكم جعلتم ﴿مِنْ قَبْلُ﴾ متعلقاً بـ ﴿وَأَنْزَلَ﴾ أو بـ ﴿التَّوْرَةَ﴾، وإنما يجعله متعلقاً بهدى، فتقول: تضمّنت الآية أنَّ هداية التوراة والإنجيل كان للناس من قبل، وذلك غير معلوم، إنما كان المعلوم أنَّ إنزالها قبل الثاني، اقتضت من أول أزمنة القبلية: إشارة إلى أنَّ هذا أمر معهود فيما سبق، وأنه ليس بأول ما نزل، بل تقدّمت كتب قبله، واستدام حكمها إلى أزمنة القبلية"⁽²⁾.

وهذا المعنى يُشير إليه قوله: ﴿مِنْ قَبْلُ﴾، ويؤكد ذلك ابن عاشور بقوله: "وَأَمَّا ذِكْرُ هَذَا الْقَيْدِ؛ فَلِكَيْ لَا يُتَوَهَّمَنَّ أَنَّ هَدَى التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ مُسْتَمِرٌّ بَعْدَ نَزُولِ الْقُرْآنِ، وَفِيهِ إِشَارَةٌ إِلَى أَنَّهَا كَالْمُقَدَّمَاتِ لِنَزُولِ الْقُرْآنِ الَّذِي هُوَ تَمَامٌ مُرَادِ اللَّهِ مِنَ الْبَشَرِ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ اللَّهِ أَلِيسْلُمْ﴾ [آل عمران: 19]، فَالْهَدَى الَّذِي سَبَقَهُ غَيْرُ تَامٍ"⁽²⁾.

سرُّ إفراذ هدى في قوله: ﴿مِنْ قَبْلُ هَدَى لِلنَّاسِ﴾:

أفردت الآية ذكر الهدى في قوله: ﴿مِنْ قَبْلُ هَدَى لِلنَّاسِ﴾، وذلك لأمرٍ صناعيٍّ، من ورائه معنى معنويٍّ، أمّا الصَّنَاعِيُّ؛ فالمصادر لا

المتعلّق هو
الهداية،
وكونهما هاديتين
غير مقطوع به
لدى كثير من
الناس

الإشارة إلى
انقطاع هداية
التوراة والإنجيل
بعد القرآن

(1) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 1/346.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/149.

أُفِرِدَ الْهَدْيُ
لأَمْرِ صِنَاعِيٍّ،
وآخر معنويٍّ،
فهدي الكتبِ
السَّماويةِ واحدٌ

التَّوْرَةُ وَالْإِنْجِيلُ
فيهما نوعُ هدايةٍ
لكلِّ النَّاسِ

مناسبةُ المناظرةِ
مع النَّصارى
تقتضي إشارَ
وصفِ القرآنِ
بالحقِّ

تُنْتَى، ولا تُجْمَع، وجيء بالمصدر للمبالغة، وأمَّا المعنويُّ؛ فالهَدْيُ أصله ومصدره واحدٌ، فلا يمكن أن يتعدَّد أو يتشعَّب؛ لأنَّه ليس له إلا طريق واحد صادرٌ عن الذات الإلهيَّة: ﴿قُلْ إِنَّ الْهُدَى هُدَى اللَّهِ﴾؛ ولذلك ورد وصف الهدى للقرآن الكريم، وللكتب السَّماويَّة كاللَّتُوراة والإنجيل بلفظٍ واحد؛ للدلالة على تَوْحُّد المصدر في الهداية.

سِرُّ التَّعبير بالنَّاس دون بني إسرائيل:

آثر القرآن التَّعبير بالنَّاس، وإن كان المرادُ: "بني إسرائيل في هذا الموضع؛ لأنَّهم المدعوُّون بهما لا غير، وهذا لا يمنع أن تُعمَّم هدايتهما؛ لأنَّهما هُدَى في ذاتهما، فكلُّ إنسان مدعوٌّ للإفادة من هدايتهما، وعلى ذلك؛ فلفظُ الناس عامٌّ في كلِّ من شاء أن يستبصر"⁽¹⁾، وتكون الهداية لغيرهما من باب قاعدة: شرع من قبلنا شرعٌ لنا؛ ما لم يُنسخ.

سِرُّ وصفِ القرآنِ بالحقِّ، والتَّوْرَةُ وَالْإِنْجِيلُ بالهُدَى:

وُصِفَتِ التَّوْرَةُ وَالْإِنْجِيلُ بالهدى في هذه الآية، ولم يُنصَّ فيها على وصفِ القرآنِ بأنَّه هُدَى مع ذكر ذلك في سورة البقرة؛ وذلك لأنَّ المذكورَ "في سُورَةِ الْبَقَرَةِ أَنَّهُ إِنَّمَا قَالَ: ﴿هُدَى لِلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: 2]؛ لِأَنَّهُمْ هُمُ الْمُتَّقُونَ بِهِ، فَصَارَ مِنَ الْوَجْهِ هُدَى لَهُمْ لَا لِغَيْرِهِمْ، أَمَّا هَاهُنَا؛ فَالْمُنَازَرَةُ كَانَتْ مَعَ النَّصَارَى، وَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ بِالْقُرْآنِ، فَلَا جَرَمَ لَمْ يَقُلْ هَاهُنَا فِي الْقُرْآنِ: إِنَّهُ هُدَى، بَلْ قَالَ: إِنَّهُ حَقٌّ فِي نَفْسِهِ سَوَاءً قَبِلُوهُ أَمْ لَمْ يَقْبَلُوهُ، وَأَمَّا التَّوْرَةُ وَالْإِنْجِيلُ؛ فَهُمْ يَعْتَقِدُونَ فِي صِحَّتِهِمَا وَيَدَّعَوْنَ بَأَنَّا إِنَّمَا نَنْقُولُ فِي دِينِنَا عَلَيْهِمَا، فَلَا جَرَمَ وَصَفَهُمَا اللَّهُ تَعَالَى لِأَجْلِ هَذَا التَّأْوِيلِ بِأَنَّهُمَا هُدَى، فَهَذَا مَا خَطَرَ بِالْبَالِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ"⁽²⁾.

(1) ابن عطية، للحرر الوجيز: 1/399.

(2) الرَّازِي، مفاتيح الغيب: 7/133، وابن عادل، اللباب: 5/21.

تخصيص هداية القرآن بالمتقين وهداية التوراة والإنجيل بالناس:

جاء ذكرُ النَّاسِ في هدايةِ التَّوراةِ والإنجيلِ، فقال: ﴿هُدًى لِلنَّاسِ﴾، "وقال في القرآن: ﴿هُدًى لِلْمُتَّقِينَ﴾⁽¹⁾ [البقرة: 2]؛ لأنَّ هذا خبر مجردٌ، وقوله: ﴿هُدًى لِلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: 2] خبر مقترن به الاستدعاء والصَّرف إلى الإيمان، فحسنت الصِّفة؛ ليقع من السَّامع النشاط والبدار"⁽¹⁾، وخصَّصه القرطبيُّ فجعل الهداية هنا خاصَّةً بالمتقين: "التَّقْدِيرُ هُدًى لِلنَّاسِ الْمُتَّقِينَ، دَلِيلُهُ فِي الْبَقَرَةِ "هُدًى لِلْمُتَّقِينَ" فَردَّ هَذَا الْعَامُّ إِلَى ذَلِكَ الْخَاصِّ"⁽²⁾.

وبناءً على هذا فالهداية على مراتب: فمنها هداية الدلالة والإرشاد، وهذا عامٌّ لكلِّ النَّاسِ، وهداية التوفيق والعناية، وهي للمتقين؛ لأنَّهم انتفعوا بما دلَّهم عليه القرآن.

دلالة لفظ الفرقان في قوله تعالى: ﴿وَأَنْزَلَ الْفُرْقَانَ﴾:

فإن قيل: ما المراد بالفرقان بعد ذكرِ التَّوراةِ والإنجيل؟ قلت: "جنس الكتب السماويَّة؛ لأنَّ كُلَّها فرقان يفرِّق بين الحقِّ والباطل، أو الكتب التي ذكرها، كأنَّه قال بعد ذكر الكتب الثلاثة: وأنزل ما يفرِّق به بين الحقِّ والباطل من كتبه، أو من هذه الكتب، أو أراد الكتاب الرابع، وهو الزُّبور، كما قال: ﴿وَعَاتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا﴾⁽³⁾ [النساء: 163]، وهو ظاهر"⁽³⁾.

الفرقان وصفٌ صالحٌ أن تتصف به جنس الكتب السماويَّة

وصف القرآن بالفرقان؛ لفائدة خاصَّة به تعظيمًا لشأنه، حيث فرَّق بين الحقِّ والباطل في الأحكام والتشريعات في الكتب السابقة، ولا سيَّما التوراة والإنجيل، وأيضًا؛ لأنَّه فرَّق بين الحقِّ والباطل في أمر عيسى عليه السلام حين جادل وفد نصارى نجران، وزعموا أنَّه ابن

فرقان القرآن أشملٌ من غيره لتراجي نزوله

(1) ابن عطية، للحرر الوجيز: 1/399.

(2) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 4/6.

(3) الزمخشري، الكشاف: 1/336، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 2/5، وأبو حيان، البحر المحيط: 3/17، ابن عادل، اللباب: 5/22.

الله، فنزل القرآن؛ ليفرق بين الحق والباطل فيما قالوه، وفي ذلك تفصيل للقرآن في فرقانه على الكتب السابقة.

ثراء اللفظ القرآني في مفردة ﴿الْفُرْقَانُ﴾:

احتمال دخول
المعجزات في
دلالة الفرقان

تعددت معاني الفرقان كما سبق ذكره بين الكتب السابقة والقرآن، ويجوز أن تحمل على معنى أعم للكل، ويكون المراد بها المعجزات التي تكون مصاحبة للكتاب، ويؤكد هذا ما ذكره الرازي بقوله: "والمختار عندي في تفسير هذه الآية وجه رابع، وهو أن المراد من هذا الفرقان المعجزات التي قرنها الله تعالى بإنزال هذه الكتب؛ وذلك لأنهم لما أتوا بهذه الكتب، وأدعوا أنها نازلة عليهم من عند الله تعالى؛ افتقروا في إثبات هذه الدعوى إلى دليل حتى يحصل الفرق بين دعواهم وبين دعوى الكذابين، فلما أظهر الله تعالى على وفق دعواهم تلك المعجزات؛ حصلت المفارقة بين دعوى الصادق وبين دعوى الكاذب، فالمعجزة هي الفرقان، فلما ذكر الله تعالى أنه أنزل الكتاب بالحق، وأنه أنزل التوراة والإنجيل من قبل ذلك، بين أنه تعالى أنزل معها ما هو الفرقان الحق، وهو المعجز القاهر الذي يدل على صحتها، ويفيد الفرق بينها وبين سائر الكتب المختلفة، فهذا هو ما عندي في تفسير هذه الآية" (1).

و﴿الْفُرْقَانُ﴾: كل أمر فرق بين الحق والباطل، فيما قدم وحدث، فدخل في هذا التأويل طوفان نوح، وفرق البحر لغرق فرعون، ويوم بدر، وسائر أفعال الله تعالى المفرقة بين الحق والباطل، فكأنه تعالى ذكر الكتاب العزيز، ثم التوراة والإنجيل، ثم كل أفعاله ومخلوقاته التي فرقت بين الحق والباطل، كما فعلت هذه الكتب (2).

ومن ثراء اللفظ؛ دورانه بين اسم الفاعل واسم المفعول، فإن أريد به اسم الفاعل؛ كان بمعنى: الفارق، وإن أريد به المفعول؛ كان بمعنى: المفروق، قال تعالى: ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْتَهُ

لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ﴾ [الإسراء: 106].

(1) الرازي، مفاتيح الغيب: 7/133 - 134.

(2) ابن عطية، المحرر الوجيز: 1/399.

بلغة الاستئناف البياني في قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾:

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾، وعيدٌ جيء به بعدما قرّر التوحيد بقوله: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾، وبعدما مهد إلى إثبات نبوته ﷺ بقوله: ﴿نَزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابُ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا﴾⁽¹⁾، فهي استئناف بياني تعظيمًا لأمر النبوة والتوحيد لأنّ نفس السامع تتطّلع إلى معرفة عاقبة الذين أنكروا هذا التنزيل⁽²⁾، والغرض من هذا الاستئناف زجر الجاحدين، والمعرضين عن هذه الآيات الظاهرة، والبيّنات القاطعة.

زجر الجاحدين،
وتوبيخ المنكرين،
بالتلويح
بالعذاب
الشديد

سرّ التعبير عن المراد بالاسم الموصول:

اختلف في المراد بالموصول في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾؛ فقيل: "أراد بهم نصارى وفد نجران، كفروا بالقرآن وبمحمد ﷺ وقيل: إنّ خصوص السبب لا يمنع عموم اللفظ، فهو يتناول كلّ من كفر بشيء من آيات الله"⁽³⁾، وقد خصّص بعض المفسرين "ذلك بالنصارى، فقصر اللفظ العام على سبب نزوله، والمحققون من المفسرين قالوا: خصوص السبب لا يمنع عموم اللفظ، فهو يتناول كلّ من أعرض عن دلائل الله تعالى"⁽⁴⁾، وقد عبّر بالموصول؛ لإظهار فعلهم الذي استحقوا بسببه العذاب الشديد.

المقصود
بالموصول
المشركون،
ويدخل
النصارى دخوله
أوّلياً

نكتة إضافة الآيات للفظ الجلالة في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ﴾:

يحتمل أن تكون الإضافة للعهد؛ إشارة إلى ما تقدّم من آيات الكتب المنزلة، ويحتمل أن تكون للجنس، فتشمل جميع ما تقدّم،

تعليل للعذاب
الشديد، وبيان
لهؤل كُفّرهم

(1) شيخ زاده، حاشية على البضاوي: 3/6 - 7.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/150.

(3) الفتوّجي، فتح البيان: 2/172.

(4) الرازي، مفاتيح الغيب: 7/134، وابن عادل، اللباب: 5/23.

وغيره كالمعجزات، وأضيفت الآيات إلى الاسم الجليل؛ "تعييناً لحيثية كفرهم، وتهويلاً لأمرهم، وتأكيذاً لاستحقاقهم العذاب الشديد، وإيضاحاً بأن ذلك الاستحقاق لا يشترط فيه الكفر بالكل، بل يكفي فيه الكفر ببعض منها"⁽¹⁾.

سر التعبير بالجملة الاسمية في قوله: ﴿لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾:

عبر بالجملة الاسمية ﴿لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾؛ للدلالة على دوام العذاب واستمراره، والتأكيد في الجملة يدل على أن العذاب لا يقدر قدره، ولا يعلم كنهه إلا الله، وفي هذا من التهويل ما فيه. تقديم الجار والمجرور ﴿لَهُمْ﴾ على ﴿عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ للتهكم: قدّم الجار والمجرور من باب التهكم بالكافرين، وإفادة استحقاقهم العذاب.

نكتة وصف العذاب بالشديد دون غيره من أوصاف العذاب:

شدة العذاب
تشمل نوعه
وزمانه وكيفيته

اختار النظم وصف العذاب بالشديد دون الوصف بالعظيم أو الأليم أو المهين "باعتبار المعذب، فهناك من يناسبه وصف العذاب بالعظيم من باب الإهانة، وهناك من يناسبه كثرة العذاب كمّاً وكيفاً كما هنا؛ لأنهم كفروا بكل آيات الله في الكتب السابقة والقرآن والمعجزات، فكان الوصف للعذاب هنا باعتبار الكمية والكيفية والدوام الأبدي"⁽²⁾.

دلالة عطف قوله: ﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ﴾:

بيان شدة
العذاب بصفات
الله تعالى

عطف الآية جملة: ﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ﴾؛ لأن ذلك مناسب لوعيد الكفار الذين سبق ذكرهم في قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ﴾، و"لأنه من تكلمة هذا الاستئناف: لِمَجِيئِهِ مَجِيءُ التَّبَيِّنِ لِشِدَّةِ عَذَابِهِمْ؛ إذ هو عَذَابٌ عَزِيزٌ مُنْتَقِمٌ"⁽³⁾.

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 2/5.

(2) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 1/347.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/150.

سِرُّ خْتَمِ الْآيَةِ بِقَوْلِهِ: ﴿عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ﴾:

خُتِمَتِ الْآيَةُ بِقَوْلِهِ: ﴿عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ﴾؛ لِأَنَّ الْعَذَابَ تَسَلُّطٌ لَا بَدَّ فِيهِ مِنْ عِزَّةٍ وَغَلْبَةٍ، وَحَيْثُ اقْتَرَنْتَ هَاتَانِ الصِّفَتَانِ؛ فَلَا بَدَّ أَنْ يَكُونَ فِي سِيَاقِ عَقُوبَةٍ عَلَى ذَنْبٍ، كَمَا وَرَدَ فِي حُكْمِ النَّهْيِ عَنْ قَتْلِ الصَّيْدِ لِلْمَحْرَمِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ عَادَ فَيَنْتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ﴾ (٩٥) [الثالثة: 95]، وَمِمَّا يَذْكَرُ فِي هَذَا الْمَقَامِ أَنَّ صِفَةَ "الْعَزِيزِ" إِشَارَةٌ إِلَى الْقُدْرَةِ التَّامَّةِ عَلَى الْعِقَابِ، وَ﴿ذُو انتِقَامٍ﴾ إِشَارَةٌ إِلَى كَوْنِهِ فَاعِلًا لِلْعِقَابِ، فَالْأَوَّلُ: صِفَةُ الذَّاتِ، وَالثَّانِي: صِفَةُ الْفِعْلِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ^(١).

إِثَارُ الْوَصْفِ بـ ﴿ذُو انتِقَامٍ﴾ دُونَ (مَنْتَقِمٍ) لِأَنَّهُ أَبْلَغُ فِي الدَّلَالَةِ:

وَاخْتَارَ هَذَا التَّرَكِيبَ عَلَى مَنْتَقِمٍ مَعَ اخْتِصَارِهِ؛ لِأَنَّهُ أَبْلَغُ مِنْهُ؛ إِذْ لَا يُقَالُ: صَاحِبُ سَيْفٍ إِلَّا مَنْ يَكْثُرُ الْقَتْلَ، لَا مَنْ مَعَهُ السَّيْفُ مَطْلَقًا^(٢).

سِرُّ اخْتِيَارِ ﴿ذُو﴾ دُونَ صَاحِبٍ:

الْوَصْفُ بـ ﴿ذُو﴾ أَبْلَغُ مِنَ الْوَصْفِ بِصَاحِبٍ؛ وَلِذَلِكَ لَمْ يَجِئْ فِي صِفَاتِ اللَّهِ صَاحِبَ، قَالَ ابْنُ عَاشُورٍ: "وَجِيءَ فِي هَذَا الْوَصْفِ بِكَلِمَةِ ﴿ذُو﴾ الدَّالَّةِ عَلَى الْمُلْكِ؛ لِلْإِشَارَةِ إِلَى أَنَّهُ انتِقَامٌ عَنْ اخْتِيَارٍ لِإِقَامَةِ مَصَالِحِ الْعِبَادِ، وَلَيْسَ هُوَ تَعَالَى مُنْذِفًا لِلِانتِقَامِ بِدَافِعِ الطَّبَعِ أَوْ الْحَقِّ"^(٣)، "وَهُوَ وَعِيدٌ جِيءَ بِهِ بَعْدَ تَقْرِيرِ التَّوْحِيدِ، وَالْإِشَارَةِ إِلَى مَا هُوَ الْعَمْدَةُ فِي إِثْبَاتِ النَّبُوءَةِ تَعْظِيمًا لِلْأَمْرِ، وَزَجْرًا عَنِ الْإِعْرَاضِ عَنْهُ"^(٤).

انتقامُ الله
سبحانه عن
اختيارٍ في إقامة
مصالح العباد

(١) الرَّازِيُّ، مَفَاتِيحُ الْغَيْبِ: 7/134، وَأَبُو حَيَّانٍ، الْبَحْرُ الْمَحِيطُ: 3/18، ابْنُ عَادِلٍ، الْبَابُ: 5/23.

(٢) الْأَلُوسِيُّ، رُوحُ الْعَانِي: 2/76.

(٣) ابْنُ عَاشُورٍ، التَّحْرِيرُ وَالتَّنْوِيرُ: 3/151، وَأَبُو حَيَّانٍ، الْبَحْرُ الْمَحِيطُ: 3/18، ابْنُ عَادِلٍ، الْبَابُ: 5/23.

(٤) الْبَيْضَاوِيُّ، أَنْوَارُ التَّنْزِيلِ: 2/5.

عنوان الكتاب:

موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الرابع، سورة البقرة من الآية 248 إلى سورة آل عمران الآية 38
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة

*

التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة

سنة الطبع: 1444هـ - 2023م

© حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي

الطبعة الأولى: 2023م

*

الفهرسة الوصفية أثناء النشر:

مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366

م. ق. ت

التفسير البلاغي للقرآن: سورة البقرة من الآية 248 إلى سورة آل عمران الآية 38 [إشراف مجمع القرآن

الكريم، قسم الدراسات والبحوث؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-

الشارقة، الإمارات العربية المتحدة: منشورات القاسمي، 2023.

مج. 4، 808 صفحة؛ 24x17 سم.

ردمك: 978-9948-798-55-2

يشتمل على ارجاعات ببلليوجرافية.

مج. 4: سورة البقرة من الآية 248 إلى سورة آل عمران الآية 38.

1-القرآن - تفاسير نحوية 2-القرآن، بديع 3-القرآن، بلاغة 4-القرآن - سور وآيات 5-القرآن-

ألفاظ أ-العنوان ب- مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).

قسم الدراسات والبحوث ج- المستغانمي، امحمد صافي

الترقيم الدولي: 978-9948-798-55-2

*

إذن طباعة رقم: MC-03-01-5828584 بتاريخ 2023/03/10م،

مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة

*

الفئة العمرية: E

«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري

الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»

*

الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE

الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»